الدين

تأليف
السيد محمد حسن ترحيني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين،

وصلى الله على محمدٍ وآله الطيبين

مقدمة

خلق الله الإنسان خليفةً له في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والخلافة في الآية ليست محصورةً في آدم عليه السلام، بل تشمل بنيه، لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

الخلافة في الآيات المتقدمة ليست خلافةً لمن كان قبل الإنسان من الكائنات، وليست خلافةَ بعضِنا لبعضٍ عبر الأجيال، وإن صحّ كلٌ منهما إلا أنه ليس المراد.

لذا اعترضت الملائكة حين إخبارها كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾

[البقرة: ٣٠]، وهذا لا يناسب إلا الاستخلاف الإلهي.

لهذا الدور كان الإنسان هو المخلوق الذي أخبر الله ملائكته عن خلقه، وأمرهم بالسجود له سجود تكريم لا سجود تعظيم، وعظَّمه خالقه، بأن خلق روحه من دون توسط أسباب، بل بإرادته الإلهية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

وهو المخلوق الذي فضّله على بقية مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] والمعنى ـ والله العالم ـ وفضّلناهم على من خلقنا، وما خلقناه كثير.

وهو المخلوق الذي سخّر الكون له، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالإنسان هو المحور الغائي من خلق الكون، لا المحور الوجودي كما تُوهم.

خلقه الله وجعله في أحسن تقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وحمى وجوده تكويناً، وكذا تشريعاً فأعطاه الحقوق، ولم يؤاخذه بخطايا الآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولم يجعل وساطةً بينه وبين خليفته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وكان الجميع من بني آدم متساوين في شرعه، مع المزية لمن قام بدور الاستخلاف الإلهي، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا الدور مستمدٌ من بديهيات العقل وما فُطرت عليه النفس، بالإضافة إلى ما أنزله الله من الشرائع والكتب، ولذا كانت أولُ الآياتِ النازلةِ على قلب النبي الأعظم ﷺ قولَه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

ففي هذه الآيات تحديدٌ لبداية السير الوجودي للإنسان وأنه من العلق، وتحديد لنهاية سيره السلوكي وأنه العلم، وتكرر فيها لفظ «الرب» مرتين، مع توصيفه بالخالقية في الأولى، لأن الإنسان من علق فصار إنساناً، وتوصيفه بالأكرمية في الثانية، لأن الإنسان قادرٌ على التعلم، ولا يوصله إلى غاية خلقه إلا العلمُ المأخوذ من خالقه وربه، وهذا العلم هو الدين المبني على العقل والفطرة.

الفصل الأول

حاجة الإنسان إلى الدين

لما تعلقت مشيئة الله سبحانه بإيجاد النوع الإنساني، قضت حكمته أن يكون خليفةً له في الأرض بتكميل نفسه، وإقامة مجتمعه، وإعمار دنياه، وأن يكون ذلك باختياره، لأن دورَه الاستخلافي لا يتم إلا بوعيه للوجود والموجود، ودورُه الاستخلافي يستدعي أن يُودع الله فيه الغرائز وأن يفطره على سجايا وطباعٍ من غضبٍ وشهوة، وما يتشعب منهما من حِرصٍ وطمعٍ وطموحٍ وتعالٍ إلى غير ذلك مما لسنا بصدد إحصائه.

ولما كان لوازم هذه الغرائز والطباع التغالبَ والتكالبَ والتشاحن والتطاحنَ وحبَ الإثرة والإمرة

وإرخاءَ العنان للشهوات، فكان تركُها منافياً لغرض خلق الإنسان، والله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

فلا بدّ من مسك عنان الشهوات وكبح جماح الغرائز والطباع فأودع الله فيه العقل.

ولما كان العقل في النوع الإنساني محدوداً، ومساحة إدراكاته ضيقة لذا كان من الضروري في العناية الربانية تأييده بقائدٍ يرفده ومساعدٍ يعينه، فكان ذلك الدين السماوي.

الفصل الثاني

وحدة الأديان

الإنسان على مرّ العصور هو نفسه في الغرائز والحاجات والتطلعات، وهذا ما يستدعي وحدةً في أصول التشريع الإلهي، الذي يُصلح الإنسان ويُحدّد دوره الاستخلافي.

ولذا اتفقت الأديان على أمورٍ منها:

١ ـ الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢ ـ الدعوة إلى عبادة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ

ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

٣ ـ إنذار يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٤ ـ الأمر بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣٠].

والإنسان أيضاً على مرّ العصور في حالة تغيّر، من ناحية الوعي الحضاري، وما يترتب عليه من مشاكل المدنية، وهذا ما يستدعي تعدداً في جزئيات النظام الإلهي، لذا كان المولى جلّ وعلا يُنزل الشريعة تلو الشريعة تبعاً للمتغيرات، إلى أن كان ناسخَها وآخرَها الدينُ الإسلامي.

الفصل الثالث

الإسلام

أُطلق لفظ «الإسلام» في القرآن على معنيين، **الأول**: التسليم لله عز وجل، كما في قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم وبنيه عليهم السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ۚ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١ ـ ١٣٣].

الثاني: الدين النازل على النبي الأعظم ﷺ، كما

في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الدين الإسلامي دين عالمي، ليس مخصوصاً بعصرٍ ولا مصرٍ ولا قومٍ، كما أن النبيﷺ مبعوثٌ إلى الأبيض والأسود والأصفر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهو خاتم الأديان وأكملها، كما أن النبيﷺ خاتمُ النبيين وأفضلُهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

امتاز الدين الإسلامي بخصائص، أهمها:

١ ـ ارتكاز عقائده على العقل.

٢ ـ ربانية التشريع في الأحكام.

٣ ـ الوسطية في التشريع، فوازن بين الدنيا

والآخرة، وبين البدن والنفس، وبين الفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٤ ـ جمع تشريعه بين الثبات والتطور، ثبات في القيم والمبادئ وتطورٌ في شؤون الدنيا والاجتماع، وثبات في الأهداف والغايات وتطور في الوسائل والأساليب، وثبات في الأصول والكليات وتطورٌ في الفروع والجزئيات.

والخلاصة أن عقائده ليست بوضع مجمعٍ بشري، ولا تشريعه من وضع متعلم غير كامل، بل عقائده لرفع الإنسان إلى الوعي الكامل للوجود والموجود، وتشريعه لإعطاء الإنسان أفضل السير السلوكي الموصل إلى غاية خلقه من تكميله وإسعاده.

لذلك سجّل هذا الدين أسرع انتشار، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

واستطاع أن يبني دولة بأسرع وقت، وأمام القوة المناوئة المؤلفة من قريش واليهود والقبائل.

واستطاع أن يُوسّعها أمام دولتين عظيمتين، وهما الروم وفارس، واستطاع أن يحمل الحضارة في القرن الثاني وما بعده، مُلخصاً كلَ ما عند الآخرين من مدنية وعلم وثقافة وآداب وأحكام، وزاد عليها بعد أن أضفى على الجميع صبغة إسلامية.

واستطاع أن يُضفي أنماطاً اجتماعياً على كل الشعوب والقبائل الذين دخلوا في الإسلام.

تعرض هذا الدين لأقسى الحملات الفكرية والعسكرية، وتعرض لأكثر الانقسامات بين أتباعه، وتعرض لأسوأ تطبيق من قبل مؤمنيه، فجعلوا عقيدته تراثاً محاطاً بوهم وخرافة، وشريعته طقوساً وعاداتٍ، ومع ذلك كله بقيت أنواره دالةً على أنه دين الله، وأنه الطريق الوحيد لكمال هذه البشرية التعيسة.

الفصل الرابع

العقيدة

الدين الإسلامي منقسمٌ إلى عقيدة وشريعة، وعُبّر عن العقيدة في القرآن بـ «الإيمان»، وعن الشريعة بـ «العمل الصالح»، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

وفي المصطلح العلمي عُبّر عن العقيدة بـ «أصول الدين»، وعن الشريعة بـ «فروع الدين».

مقومات الاعتقاد

العقيدة لا بدّ فيها من الاعتقاد والعلم، ولا يغني أحدهما عن الآخر، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ

أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

وفي الخبر الصادقي: (فأما ما فُرض على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إلهاً واحداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله صلوات الله عليه وآله، والإقرار بما جاء من عند الله من نبيّ أو كتاب، فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة) [البحار ٦٦/ ٢٤ ح٦].

فالاعتقاد هو عقد القلب، ومعناه: الالتزام القلبي بجعله ديناً، والعلم هو التصديقي، وهو علمٌ بنسبة شيء إلى آخر مع القطع بثبوتها واقعاً.

أصول الدين

صريح الخبر المتقدم أن أصول الدين اثنان: التوحيد والنبوة الخاصة، وله نظائر **منها**: الخبر الصادقي: (الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس شهادة

أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان، فهذا الإسلام، وقال: الإيمان معرفة هذا الأمر مع هذا، فإن أقرّ بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلماً وكان ضالاً) [البحار ٦٥/ ٢٤٧ ح٦].

والخبر الآخر عنه عليه السلام: (الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله، به حُقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس) [البحار ٦٥/ ٢٤٨ ح٨].

والخبر الباقري: (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقرّ بما جاء به من عند الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام شهر رمضان، وحجّ البيت فهو مسلم) [البحار ٦٥/ ٢٧٠ ح٢٦].

والخبر الصادقي: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أيها الناس إني أُمرت أن أقاتلكم حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلك حقنتم بها

أموالكم ودماءكم إلا بحقها، وكان حسابكم على الله) [البحار ٦٥/ ٢٨٢ ح٣٥]، بالإضافة إلى السيرة القطعية ـ المستفادة من ثنايا كتب التاريخ والسير ـ من حكم النبي الأعظمﷺ بإسلام من تشهد الشهادتين.

ولذا قال الشيخ الأنصاري في رسائله، في التنبيه الخامس من تنبيهات دليل الانسداد ص ٢٧٧: (لم يُعتبر في الإيمان أزيد من التوحيد والتصديق بالنبيﷺ، وبكونه رسولاً صادقاً فيما يُبلّغ).

نعم هناك أمورٌ ضرورية الثبوت عن النبيﷺ كالإمامة والمعاد، فيُعتبر في الإسلام عدم إنكارها.

التوحيد

يكفي في التوحيد الاعتقاد بأن الله موجودٌ لذاته، واحدٌ أحدٌ، عالمٌ قادرٌ، عادلٌ، لا يفعل إلا الحَسَنَ، ويترك القبيح فعلاً أو تركاً.

والعلم بوجود الصانع علم مرتكز على البداهة

العقلية، لأن العقل يؤمن بالعليّة وهو يرى الصنع فلا بدّ من القطع بوجود الصانع.

والعلم بأنه أحدٌ، لعدم وجود سلطانٍ لغيره، والعلم بأنه عالم قادر عادلٌ يفعل الحَسَنَ ويترك القبيح، لتمامية الصنع التكويني والتشريعي وإتقانهما.

بل العلم بوجود إلهٍ واحدٍ هو علم فطري في النفوس، وهو موجود عند الجميع، فلذا لا يُعذر أحدٌ في عدم التوحيد، وإن لم تصله أدلة النبوة الخاصة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤]. أخذ عليهم الإقرار بالربوبية لئلا يحتجوا بالغفلة، أو يتذرعوا بتقليد الآباء، وهذا الأخذ أخذٌ تكويني، بمعنى فطر النفوس على التوحيد،

بخلقها متعلقة بخالقها، وهو المراد من قوله تعالى ـ والله العالم ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

ففي الخبر: (فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد) [البحار ٣/ ٢٧٨ ح٧]، وفي ثانٍ: (فطرهم جميعاً على التوحيد) [البحار ٣/ ٢٧٨ ح٨]، وفي ثالثٍ: (كل مولود يُولد على الفطرة، يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه) [البحار ٣/ ٢٧٩ ح١١]، وفي رابعٍ: (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه) [البحار ٣/ ٢٨١ ح٢٢].

العدل

إذا كان التوحيدُ كمالَ الله في ذاته وصفاته فالعدل كمالُ الله في أفعاله.

والعدل إعطاء كل ذي حقٍ حقه، ولازمه فعل الحسن وترك القبيح في التكوين والتشريع.

نعم في الواقع التشريعي ذهب بعضُ المسلمين إلى جواز تكليف العباد بغير المقدور، وجواز التكليف بما لا مصلحة فيه، بل وإن كان فيه مفسدة، والجبرِ على المعاصي مع العقاب عليها، وزيادةِ عقاب العاصي على ما فعل، وجوازِ العقاب على الحكم المجهول، لأن اللهَ لا يفعل الحُسن لحسنه، ولا يترك القبيح لقبحه، بل ما يفعله هو الحسنُ وإن كان قبيحاً، وما يتركه هو القبيح

وإن كان حسناً.

وهذه الأمور منافية للعدل الإلهي، فلذا أُفرد للعدل بابٌ في قبال التوحيد، حتى يلتفت الغافل إلى شناعة هذا القول، مع التأكيد بأن الله يفعل الحسنَ لحسنه الذاتي ولا يتركه، ويترك القبيح لقبحه الذاتي ولا يفعله.

وأما في الواقع التكويني فقد تُوهم بأنه لا عدل فيه، لوجود ما يُسمى بالشرور الكونية، كالبلايا والآلام والأمراض والمصائب والسيول والزلازل والموت، وهو ليس في محله.

لأن الشيء يُحكم عليه بالحسن أو القبح تبعاً لغايته، فقتل النفس إن كان في سبيل نصرة الحق فحسن، وإن كان للبغي والظلم فقبيح، مع أنه أمرٌ واحدٌ قد اختلف حكمه لاختلاف غايته، ومن كان هذا شأنه فيأخذ حكمَ الأهم من غاياته لو ترتبت دفعة واحدة.

وعليه فهذه الأمور المسماة بالشرور الكونية لما يترتب عليها من إتلاف أموالٍ، وآلام أبدان، وتعذيب

نفوس وإزهاق فهي أمورٌ حسنة، لما يترتب عليها من غايات أهم.

منها: إنذار الغافل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

ومنها: تكميل الملتفت، قال تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] والتكميل بإظهار ما في النفوس من استعدادات وملكات، بخروجها من القوة إلى الفعل، وفي الخبر العلوي: (وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعالُ التي بها يُستحق الثواب والعقاب)، [نهج البلاغة ج٤ ص٥٣٦، رقم الحكمة ٩٣].

ومنها: زيادة الثواب ورفع الدرجات، وهذا للأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم السلام، ففي الخبر عن الأنبياء والأوصياء: (وما كان الذي أصابهم من ذلك لذنبٍ

اقترفوه، ولا لعقوبة خالفوا الله بها، ولكن لمنازل وكرامة من الله، أراد أن يبلغوها) [البحار ٤٤/ ٢٧٧ ح٥].

وفي خبر ثانٍ: (إن الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب) [البحار ٧٨/ ١٨٠ ح٢٦].

بالإضافة إلى غاية أخرى كما في الخبر: (ولو جعلهم الله عز وجل في جميع أحوالهم غالبين قاهرين، ولم يبتلهم ولم يمتحنهم لاتخذهم الناسُ آلهةً من دون الله عز وجل، ولما عُرف فضلُ صبرهم على البلاء والمحن والاختبار) [البحار ٤٤/ ٢٧٤ ح١].

وأما بالنسبة للأولياء ففي الخبر: (إن البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة) [البحار ٦٤/ ٢٣٥ ح٥٤]، [والمصدر نفسه ٧٨/ ١٩٨ ح٥٥].

ولذا كانت الأصناف الثلاثة أكثرَ الناس بلاءً، ففي الخبر: (أعظمُ الناسَ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل) [البحار ٤٤/ ٢٧٥ ح٣]، وفي خبر ثانٍ: (إنما المؤمن

بمنزلة كفة الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه) [البحار ٦٤/ ٢١٠ ح١٣].

ومنها: جزاء السيئات للعاصين، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

هذا بالإضافة إلى أن الدنيا مبنية على ابتلاء عموم البشر، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]. والابتلاء كما يكون بالمرض والفقر ونحوهما مما يعده العرف شراً، يكون بالصحة والغنى ونحوهما مما يُعد أنه خير، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]،

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

والابتلاء للعموم، لأن الإنسان ينقاد بشعرة إلى هواه مع وضوح البطلان، ولا ينجذب بسلسلةٍ إلى تقواه مع قوة البرهان، فلا بدّ من سوقه بسوط البلاء إلى صلاحه، بتوجيه نفسه نحو كمالها ونحو خالقها بالانقطاع إليه والاعتماد عليه.

وفي الخبر: (ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بألوان المَجَاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه) [نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقم ١٨٥، ج٢ ص ٣٣١].

ولا يمكن رؤية ذلك إلا بعين العبودية، ولذا ورد في الخبر: (لن تكونوا مؤمنين حتى تعدوا البلاء نعمة) [البحار ٧٨/ ١٩٩ ح٥٦]، وفي ثانٍ: (ما من بلية إلا ولله فيها نعمة تحيط بها) [البحار ٧٥/ ٣٧٤ ح٣٤].

ومما تقدم من ترتب الحُسْنِ على الشرور الكونية تعرف السبب في إيراد المولى جلّ وعلا في القرآن بعض الشرور الكونية في مقام الامتنان على العباد، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فحسن هذه الشرور الكونية مع دقة الصنع وتناسق الأجزاء وكثرة المخلوقات تدل على أن هذا العالم التكويني مبنيٌ على الحُسن الذي لا قبح فيه، وأنه ليس في الإمكان أحسنُ مما كان، ولقد أجاد بعضهم حيث قال:

ما ليس موزوناً لبعضٍ من نَغَمْ
ففي نظام الكل كلٌّ مُنْتَظَمْ

(شرح المنظومة للسبزواري ج١ ص٤٢٢).

النبوة العامة

العقل حاكم بلابدية إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأن الله خلق الإنسان، وجعله خليفةً له في الأرض، بتهذيب نفسه وإقامة مجتمعه وإعمار دنياه، ولا يهتدي العقل بنفسه إلى تفاصيل هذه الأمور، فلا بدّ للخالق أن يبعث رسولاً من جنس البشر، يهديهم إلى هذه التفاصيل، وبهذا تثبت ضرورة بعث الأنبياء والرسل وإنزال الشرائع والكتب، ففي الخبر الصادقي: (إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقُه، ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أن له سفراء في خلقه، يُعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلّونهم على مصالحهم

ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزَّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه) [البحار ١١/ ٢٩ ـ ٣٠ ح٢٠].

وفي خبر ثانٍ: (لمّا لم يكن في خلقهم وقواهم ما يكملوا مصالحهم، وكان الصانع متعالياً عن أن يُرى، وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهراً، لم يكن بدٌّ من رسولٍ بينه وبينهم، معصومٍ يؤدي إليهم أمره ونهيه وأدبه، ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارهم) [البحار ١١/ ٤٠ ح٤٠].

ولذا كان بعثُ الأنبياء سنةً إلهية في كل الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والعقل حاكمٌ بأن النبي لا بدّ له من إقامة الدليل على نبوته، لأنه يدعي السفارة بين الخالق والمخلوق، وأهم الأدلة ثلاثة.

الدليل الأول: المعجز، وهو أمرٌ خارق للعادة

التكوينية، ومسبوق بدعوى النبوة، ومقرون بالتحدي مع عدم المعارضة له.

وفي الخبر الصادقي: (والمعجزة علامة الله لا يعطيها إلا أنبياءه ورسله وحججه ليعرف به صدق الصادق من كذب الكاذب) [البحار ١١/ ٧١ ح٢].

وفي خبر ثانٍ: (فلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علمٌ يدل على صدق مقال الرسول) [البحار ١١/ ٣٠ ح٢٠].

واقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معاجز الأنبياء من جنس الغالب زمن صدورها، ففي الخبر الرضوي: (إن الله تبارك وتعالى لمّا بَعَثَ موسى عليه السلام كان الأغلب على أهل عصره السحرَ، فأتاهم من عند الله عز وجل بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجة عليهم، وأن الله تبارك وتعالى بعث عيسى في وقت ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله عز وجل بما لم يكن عندهم مثله،

وبما أحيى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله تبارك وتعالى بعث محمداً في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام ـ والشعر: نسخة أخرى ـ فأتاهم من كتاب الله عز وجل ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم وأثبت الحجة عليهم) [البحار ١١/ ٧٠ ح١].

الدليل الثاني: تنصيص السابق على اللاحق، وهذا كافٍ في إثبات نبوة الثاني بعدما ثبتت نبوة الأول بالمعجز أو بغيره.

الدليل الثالث: جمع الشواهد والقرائن تارةً من نفسيات النبي بملاحظة أخلاقه وسيرته، وعدم انكبابه وراء الدنيا.

وأخرى من ناحية نفس الدعوة كعقيدة وأحكام، فالعقيدة لا بدّ أن توافق العقلَ والفطرةَ في أصولها، والأحكامُ لا بدّ أن توافق العالم التكويني، لأن التشريع تسييرٌ للتكوين، ومع عدم المطابقة لا يتمّ التسيير.

وثالثةً من ناحية الأساليب التي يتبعها في الدعوة، فلا يعتمد على المكر والخداع والبغي والظلم والكذب، لأن الغاية لا تبرّر الوسيلة.

ورابعة من ناحية أتباعه سيرةً وحالاً، بأن عليهم سيماء العلماء ولهم سلوك الحكماء.

النبوة الخاصة

الأدلة على نبوة النبي الأعظمﷺ كثيرة جداً، فمن أدلة جمع الشواهد والقرائن يجد المتأمل أن الأنوار الإلهية والقيم الإنسانية قد اجتمعت فيه، فكان الإنسان الكامل، وأن سلسلة الأنبياءعليهم السلام كانت ناقصة بدونه، فأتت قبله ممهّدة لظهوره حتى تكتمل به، فكان كمالها وعنوانها. وأنهﷺ جسّد منتهى الكمال البشري في نواحيه الخَلقية والخُلقية والعبودية والفكرية والنفسية، ودفع البشرية بمصداقيها الفردي والجمعي، وفي سلوكيها الديني والدنيوي نحو التكامل، فقسّم التاريخ الإنساني والحضاري والمدني والعبودي والأخلاقي إلى ما قبل الإسلام، وإلى ما بعده.

وملك الروم ـ هرقل ـ عندما بعث النبيﷺ رسائله إليه وإلى غيره من ملوك الأرض، طلب أن يفتشوا له في أرض الشام عن رجلٍ من قوم النبيﷺ، فأتَوْا له بأبي سفيان:

(فقال له ملك الروم: انبئني عمّا أسألك عنه من شأنه، قلت: سلْ عما بدا لك.

قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: محض ـ خالص ـ أوسطنا نسباً.

قال: فأخبرني هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول مثلَ ما يقول، فهو يتشبه به؟

قلت: لا.

قال: فهل كان له فيكم مُلْكٌ فاستلبتموه إيّاه، فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه؟

قلت: لا.

قال: فأخبرني عن أتباعه منكم، مَنْ هم؟

قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف في قومه فلم يتبعه منهم أحد.

قال: فأخبرني عمن تبعه، أيحبه ويلزمُه، أم يقليه ويفارقه؟

قلت: ما تبعه رجلٌ ففارقه.

قال: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟

قلت: سجَال، يُدال علينا وندال عليه.

قال: فأخبرني هل يغدر؟

فلم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها، قلت: لا، ونحن منه في هدنة، ولا نأمن غدره.

قال: فوالله ما التفت إليها مني، ثم كرّ عليّ الحديث، قال: سألتك كيف نسبه فيكم، فزعمت أنه محضٌ، من أوسطكم نسباً، وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً.

وسألتُك: هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول بقوله، فهو يتشبه به، فزعمت أن لا، وسألتُك: هل كان له فيكم مُلْكٌ، فاستلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت أن لا.

وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل مكان.

وسألتك عمّن يتبعه، أيحبه ويلزمه، أم يقليه ويفارقه؟

فزعمت أنه لا يتبعه أحدٌ فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه.

وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا، فلئن كنتَ صدقتني عنه ليغلبنني على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه) [تاريخ الطبري ٢/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨].

ومن أدلة تنصيص السابق قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولم يصل إلينا أيٌّ من الكتب المنزلة، لنعرف ما هو الموجود فيها، نعم في التوراة الرائجة في سفر تثنية الاشتراع، الإصحاح ١٨، الفقرة ١٨ ـ ١٩: (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه).

والقرآن كلام الله، نطق به النبي الأعظم ﷺ على قومه.

وفي تثنية الاشتراع أيضاً، الإصحاح ٣٣، الفقرة ٢ ـ ٣: (جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نارُ شريعة لهم).

وجبل فاران من جبال مكة، وهي بلد النبي الأعظم ﷺ.

وفي الإنجيل المنسوب إلى يوحنا، الإصحاح ١٦، الفقرة ٧ ـ ١٤: (غير أني أقول لكم الحق: من الخير لكم أن أمضي، فإن لم أمضِ لا يأتيكم المؤيّد ـ إلى قوله ـ فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويتكلم بما يحدث).

وفي المصدر نفسه، الإصحاح ١٤، الفقرة ١٦: (فيهب لكم مؤيداً آخر يبقى معكم إلى الأبد).

هذا بحسب الطبعة الثالثة للمطبعة الكاثوليكية، وفي طبع المركز العالمي للكتاب المقدس لفظ (المعزّي) بدل (المؤيد)، وفي طبع جامعة الروح القدس ـ لبنان سنة ١٩٨٧ لفظ (البرقليط) بدل (المعزّي والمؤيّد).

وهذه الألفاظ تعريب لفظ (بيركلتوس) اليونانية كما في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٣٩٧، وقد

سأل بعض المستشرقين الطليان عن معنى هذا اللفظ، فقال له: «الذي له حمد كثير».

وهو يوافق لفظ «أحمد» الوارد في سورة الصف.

وهناك إشارات متعددة في التوراة والإنجيل الرائجين، لا تنطبق إلا على النبي الأعظمﷺ، بالإضافة إلى التصريح باسمه في أكثر من مورد في إنجيل «برنابا» المتداول، الذي لم تعترف به الكنيسة.

وأما معاجز النبي الأعظمﷺ فكثيرة جداً، قال ابن شهراشوب في مناقبه ١/ ١٤٤: (وكان له معجزات لم يكن لغيره، وذُكر له أربعة آلاف وأربعمائة وأربعين معجزة)، وأهمها وأقواها وأبقاها القرآن الكريم.

اسمه: القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

وسُمّي قرآناً من القراءة، بمعنى التلاوة، وأما

أوصافه فكثيرة، كالفرقان، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، والفرقان من الفرق والفصل بين شيئين، وقد فَرّق بين الحق والباطل بأدلة تدل على صحة الأول وبطلان الآخر.

تعريفه: هو الكلام المعجز المُنْزَل على النبيﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته، ويطلق على جميعه وبعضه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وفيه كل ما له الدخل في هداية الإنسان في سيريه العبودي والإنساني، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فهو كتاب هداية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

فجعلُه كتاباً تاريخياً أو علمياً أو جعلُ بعضه كما

تعامل معه البعض ليس في محله، نعم تضمن الكثير من الإشارات إلى السنن الكونية والاجتماعية للتدليل على ألوهية أو خالقية أو ربوبية الصانع جل وعلا، وتضمن الكثير من قصص الأنبياء عليهم السلام وغيرهم للتدليل على نتائج السير العبودي والإنساني من جهتي الخير والشر.

تقسيمه: له تقسيمان، **الأول**: بحسب السور، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

والسورة من «التسوير»، لأن لها نمطاً خاصاً إما من ناحية الإسلوب أو اللفظ أو المعنى.

وكل السور لا تخلو من البسملة في أولها إلا سورة «براءة»، وفي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما سُئل عن ذلك فقال: (لأن البسملة أمان، والبراءة نزلت بالسيف) [مجمع البيان ٥/ ٤].

وجُعلت السور بين القصار والطوال والأوساط تنبيهاً على أن القَصْرَ ليس شرطاً في الإعجاز، فالإعجاز

القرآني تحقق في التطويل غير المملّ كما تحقق في الإيجاز غير المخلّ.

وعدد سوره (١١٤) سورة، وأطولها سورة البقرة، وأقصرها الكوثر والعصر، وفي الخبر الكاظمي: (أول سورة نزلت «بسم الله الرحمٰن الرحيم، اقرأ باسم ربك الذي خلق»، وآخر سورة نزلت «إذا جاء نصر الله والفتح») [البحار ٨٩/ ٣٩ ح١].

وقُسّمت سوره إلى النازل قبل الهجرة فهو مكي وإن نزل خارج مكة، وإلى النازل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل خارج المدينة.

والمدني (٢٨) سورة، وهي بحسب الترتيب المصحفي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الرعد، الحج، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الرحمٰن، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، الإنسان، البيّنة، الزلزلة، النصر.

والباقي مكيّ وهو (٨٦) سورة.

ويتميز المكي بأنه من السور القصار غالباً، وبإخباره عن الأمم والقرون الماضية، ويكثر فيه الخطاب بلفظ «يا أيها الناس»، وغالبه نزل جملة واحدة.

ويتميز المدني بأنه من السور الطوال غالباً، وباشتماله على الأحكام والفرائض وذكر المنافقين، وغالبه نزل مُفَرّقاً، إلا سورة الأنعام، فإنها نزلت جملة واحدة.

وفي النبوي: (أُعطيت الطوال مكان التوراة، وأُعطيت المئين مكان الإنجيل، وأُعطيت المثاني مكان الزبور، وفُضّلت بالمفصّل: سبع وستين سورة) [البحار ٨٩/ ٢٧، ح ٣١].

والطوال سبعٌ، وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة، والأخيرتان تُسميان بالقرينتين، لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وهما السابعة.

المئون: ما وَلِيَ السبع الطوال.

والمثاني: ما كانت بعد المئين، وهي التي تقصر عن المئين وتزيد على المفصّل.

والمفصّل سُمّي بذلك، لكثرة الفصول بين سوره بالبسملة، وهو سبع وستون سورة، من سورة «الفتح» إلى آخر القرآن.

وله طوال وأوساط وقصار، فطواله إلى «النبأ»، وأوساطه منها إلى «الضحى»، وقصاره منها إلى آخر القرآن.

التقسيم الثاني: بحسب الآيات، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [فصلت: ٣]، والآية: علامةٌ على انقطاع ما قبلها عما بعدها.

عدد الآيات: (٦٢٣٦)، أطولها آية الدين، البقرة: ٢٨٢ ـ وأقصرها ما تألف من كلمة، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الرحمٰن: ١]، بل ما تألف من الحروف المقطعة.

وهذا ما امتازت به آياته، والحروف المقطعة في القرآن بعد حذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي:

الألف، اللام، الميم، الصاد، الراء، الكاف، الهاء، الياء، العين، الطاء، السين، الحاء، القاف، النون، وهي واردة في تسعٍ وعشرين سورة.

وهذه الحروف المقطعة نصف عدد الحروف الهجائية، وهي نصفها بحسب النطق، لأن الحروف الهجائية إما مهموسة أو مجهورة، وإما شديدة أو رخوة، وإما مطبقة أو منفتحة، والحروف المقطعة نصف المهموس والمجهور، ونصف الشديد والرخو، ونصف المطبقة والمنفتحة.

وهي واردة، في القرآن تارة على حرفٍ واحد: ص، ق.

وثانية على حرفين: طه، يس.

وثالثة على ثلاثة أحرف: الم، الر، طسم.

ورابعة على أربعة أحرف: المص، المر.

وخامسة على خمسة أحرف: كهيعص، حم عسق.

والانتهاء بالخمس، لأن آخر أبنية الاسم على خمسة أحرف، كسفرجل، والاسم هو الأصل في اللغة العربية، دون الفعل والحرف.

وقيل في هذه الحروف المقطعة أقوالٌ، غالبها استحساني، والذي يتوقف عنده قولان:

القول الأول: أنها من المتشابهات، والقرآن فيه متشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

القول الثاني: أنها كمال التحدي، فالقرآن نزل متحدياً، وهو مؤلف من الحروف الهجائية، وهي تحت متناول اليد لكل إنسان، فأتى بالحروف المقطعة في أوائل السور للتنبيه على ذلك.

وفي الخبر السجادي: (كذّبت قريش واليهود

بالقرآن، وقالوا: هذا سحرٌ مبين تقوّله، فقال الله: ألم، ذلك الكتاب. أي يا محمد، هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو بالحروف المقطعة، التي منها ألف ولام وميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين) [البحار ٨٩/ ٣٧٧، ح ١٠].

وفَهِمَ العرب ذلك فلذا لم يَعب المشركون على النبيﷺ، مع أنهم كانوا في غاية النزاع معه.

وجه إعجازه:

نزل القرآن متحدياً، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا

فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

ولم يستطع أحدٌ الإتيانَ بسورة من مثله، لأن إعجازه من جميع جهاته، وهذا خارج عن مقدور البشر.

فمن وجوه إعجازه إعجازُه من ناحية فصاحة اللفظ، ففي ألفاظه اتساق وائتلاف بين حركات الألفاظ وسكناتها، وبين مدات الحروف وغناتها، وبين اتصالات الكلمات وفواصلها، فضلاً عن تناسق حروفه بين همسٍ وجهر وإخفاء وإظهار وشدة ولين وخشونة ورقة، مع عدم وحشية اللفظ، ولا ثقل عند النطق، ولا تنافر بين الحروف.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، ففي الآية خمس تاءات في أول الكلمات ولا ثقل.

وقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ

عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، وفي الآية ثمانية عشر ميماً في أول الكلمات ووسطها وآخرها.

وإعجازه من ناحية بلاغة المعنى ودقته، فخاطب العقل بما أقنعه من المعارف، وخاطب القلبَ بما أشبعه من الإيمان، وأرضى أذواق العامة والخاصة، ففي الخبر الصادقي: (كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواصّ، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء) [البحار ٨٩/ ١٠٣، ح ٨١].

ولذا كان له ظهرٌ وبطن، وتنزيل وتأويل.

وإعجازه من ناحية بداعة الأسلوب، فكان أسلوبه بين النثر والشعر، فالشعر له أوزان متحدة ونغمة واحدة، والنثر لا وزن له ولا قافية، وفي القرآن أوزان متعددة وأنغام متسقة، وسجعات تتردد، وقافية تتحكم، من دون اتحادٍ بين هذه الأوزان، أو تلك النغمات.

وأكثر القرآن الانتقال من مقصدٍ إلى آخر، حتى لا يُصاب القارىء بالملل ولا المستمع بالضجر.

مع أن القرآن نزل على مدى ثلاث وعشرين عاماً مشتملاً على المعارف والأحكام والمفاهيم والإخبارات، لم يتغير أسلوبه ولا متانة معانيه، ولم ينقض بعضُه بعضاً، ولم يحتج إلى تكميل ولا تهذيب، مع اختلاف الأحوال من العهد المكي إلى العهد المدني، ففي العهد المكي كان الضيق والحصار والتكذيب، وفي العهد المدني كان بناء المجتمع والدولة مع خوض الحروب بنصرٍ تارة وانهزام الأصحاب أخرى.

وأتى به النبيﷺ الذي لم يتعلم عند أحد، ولم يُعهد منه القراءة ولا الكتابة، ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وإذا لم يجدوا أنه كتاب سماوي فالريب في قلوبهم، وليس في القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ

فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

مع أن القارىء لا يسأم منه، والنفس لا تملّه، والذهن لا يكلّ بالتجوال بين آياته، والعقل يستفيد منه الجديد كلما تأمل فيه، ففي الخبر: (أن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام ما بالُ القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال: لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كلّ قومٍ غَضٌّ إلى يوم القيامة) [البحار ٨٩/ ١٥، ح ٨].

وفي ثانٍ: (جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: اقرأ عليّ، فقرأ عليه: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون».

فقال: أعد، فأعاد، فقال: واللَّهِ إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق، وما يقول هذا بشر) [البحار ١٧/ ٢١٢، ح ١٧].

وفي ثالثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام: (لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون) [البحار: ٨٩/١٠٧، ح ٢].

الفصل الخامس

الشريعة

الشريعة الإسلامية نظّمت علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبأخيه المسلم، وبأخيه الإنسان، وبالحياة، وبالكون.

الشريعة حققت للإنسان عبوديته لربه، وإنسانيته في ذاته، وأخوته لبني نوعه.

الشريعة حققت للإنسان تكامله البدني والنفسي والعقلي، الفردي والاجتماعي، الدنيوي والأخروي.

الشريعة وازنت بين متطلبات الجسد ونوازع النفس وتطلعات الفكر، ووازنت بين ضرورات الدنيا ومقتضيات الآخرة.

الشريعة ركّزت على الإنسان في سيره الوجودي، من الأجنة إلى الجنة، وفي سيره السلوكي من إخراج الأذى عند التغوط إلى إدخال النافع من العلم.

الشريعة نظرت إلى أصول الحياة، ومقومات الإنسان، وتطور البشرية ومتغيراتها.

الشريعة شاملة لسير الإنسان وأفعاله ومقوماته، ففيها كل ما يحتاجه الإنسان، ففي الخبر الباقري: (إن الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله) [البحار: ٨٩/ ٨٤، ح ١٦].

فلذا كانت هذه الشريعة ناسخةً لما قبلها، متضمنةً ما في الشرائع السابقة وزيادة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

اهتمت الشريعة بالحياة الدنيا كاهتمامها بالآخرة، فسنّت أحكاماً لحفظ الحياة الدنيا وتنظيمها، فلذا ركّزت

على ثلاثة مصالح: الضرورية، والحاجية، والتحسينية.

الضرورية، إذ لا وجود للحياة بدونها، وهي: الدين والنفس والعقل والعرض والنسل والمال، وهذه ليست على رتبة واحدة في ضروريتها، فبعضها آكد من بعض، فحفظ الدين مقدم على حفظ النفس، وحفظ النفس مقدم على حفظ المال.

الحاجية، مشتقة من الحاجة، وهي: كل ما فيه تنمية للمال وكل ما يُوصل إليه، كالصيد والحيازة والتجارة والإجارة والمضاربة ونحو ذلك.

التحسينية، وهي ما تعود إلى حُسن العادة والخُلُق الفاضل والمظهر الكريم والذوق السليم، مما تجعل الفرد والمجتمع يعيشان في حياة هانئة، كآداب المأكل والمشرب والملبس والمسكن والرفقة والعشرة ونحو ذلك.

ومن اهتمام الشريعة بالحياة الدنيوية أنها شرّعت العباداتِ تنويراً للقلوب، وتربيةً للأرواح، وتهذيباً

للنفوس، وأخذاً بالنوع الإنساني من حضيض البهيمية إلى كمال الإنسانية.

وشرّعت المعاملات بالعقود والإيقاعات حفظاً للوئام والنظام، وجعلت القصاص والديات حفظاً للنفوس، والجهادَ حفظاً للدين وأهله، وحرّمت المسكرات حفظاً للعقل، والزنا وأخويه من اللواط والسحاق حفظاً للأنساب، والغضب والسرقة مع قطع يد السارق حفظاً للأموال، والغيبة والبهتانَ والقذفَ حفظاً للأعراض، إلى غير ذلك مما يجده المتأمل في ثنايا أحكامها.

وكانت أحكام الشريعة على نوعين ـ بالإضافة إلى ما يجب على الإنسان اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ـ:

الأول: الأخلاقي، وهو ما يجب على الإنسان أن يتحلى به من الفضائل، وأن يتخلى عنه من الرذائل.

الثاني: العملي، وهو المتعلق بأفعال الإنسان.

وهو على قسمين، قسمٌ يتعلق بالقلب، كالتسليم بأمره، والرضا بقضائه، وعدم الأمن من عقابه، وعدم اليأس من رحمته.

وقسم يتعلق بالجوارح، وهو المنقسم إلى عبادات ومعاملات.

فالعبادات: هي الواجبات المتوقف صحتها على قصد التقرب إلى الله جل وعلا، كالصلاة والصوم والحج والزكاة.

والمعاملات: هي الواجبات غير المتوقف صحتها على قصد التقرب، كالبيع والزواج.

وهذه المعاملات ناظرة تارة إلى ما يتعلق بالأسرة وعلاقة الزوجين وعلاقتهما بالأولاد، وعلاقة الأقارب بعضهم ببعض، وهي المسماة بأحكام الأحوال الشخصية.

وأخرى إلى معاملات الأفراد ومبادلتهم، مما فيه علاقة مالية أو فيه حفظ الحقوق، أو حمايتها، أو

أداؤها، كالبيع والإجارة، وهي المسماة بالأحكام المدنية.

وثالثة إلى تنظيم الموارد والمصارف والعلاقات المالية بين الغني والفقير، وبين الدولة والأفراد، وهي المسماة بالأحكام المالية.

ورابعة إلى جرائم الإنسان، وما يترتب عليها من عقوبة، وما يُقصد به حفظ حياة الناس وكراماتهم وأعراضهم، وهي المسماة بالأحكام الجنائية.

وخامسة إلى إجراءات تحقيق العدل بين المتخاصمين، من القضاء والشهادة واليمين، وهي المسماة بأحكام المرافعات.

وسادسة إلى أصول الحكم وواجبات الراعي والرعية وحقوقهما، وهي المسماة بالأحكام الدستورية.

وسابعة إلى معاملة الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول، ومعاملة المسلمين مع غيرهم في الدولة الإسلامية أو في المجتمع الإسلامي، وهي المسماة بالأحكام السياسية.

وهذه الأحكام بتمامها مبنية على المصالح والمفاسد، فكل فعلٍ فيه مصلحة مُلزمةٌ فحكمه الوجوب، وكل فعلٍ فيه مفسدة ملزمةٌ فحكمه الحرمة، وكل فعلٍ فيه مصلحة راجحةٌ فحكمه الاستحباب، وكل فعلٍ فيه مفسدة راجحة فحكمه الكراهة، وكل فعلٍ خلا من المصلحة والمفسدة فحكمه الإباحة اللاقتضائية، وإلا لو كان فيه مصلحة ومفسدة متساويتان فحكمه الإباحة الاقتضائية، هذا مع الالتفات إلى أن المراد من المصلحة ما هو أعم من الدنيوية والأخروية، والدنيوية ما هو أعم من البدنية والنفسية والعقلية، وأعم من الفردية والاجتماعية، وأعم من المحسوسة وغيرها.

وهذه الأحكام ضمن المقدور، فكل حكم فوق القدرة ساقط عن التكليف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وأما الحكم المساوي للقدرة فهو المسمى بحد

الطاقة، وهو غير ملزم، كما في صوم الهرم، المُعبّر عنه فقهياً بصوم الشيخ والشيخة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وهذه الأحكام مبنية على عدم الحرج وعدم العسر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

هذه الشريعة الغراء مجموعة أحكام، إذ لا معنى للشريعة العارية عن الحكم، ولا بدّ من امتثال هذه الأحكام، إذ فائدة الحكم في تطبيقه.

وامتثال هذه الأحكام متوقف على واحدٍ من ثلاثة أمور، إما الاجتهاد أو التقليد أو الاحتياط، لأن المكلف في مقام الامتثال إما أن يعتمد على ما علم أنه من الشريعة بحسب الأدلة فهو الاجتهاد، وإما أن يعتمد على فتوى العالم فهو التقليد، وإما أن يعتمد على الإتيان بكل محتملات الواقع فهو الاحتياط.

فالاجتهاد هو بذل الجُهد بمعنى المشقة، أو الجَهد بمعنى تمام القدرة، وهو المُعبّر عنه: باستفراغ الوسع ـ القدرة ـ في تحصيل الحكم الشرعي من الأدلة المقررة.

ودوره إما الكشف عن الحكم الواقعي الذي بيّنه الله في كتابه، أو بيّنه المعصومعليه السلام في إخباره، والكشف المذكور يتم من دلالات القول والفعل، وإما تحديد الوظيفة العقلية أو الشرعية تجاه الحكم المجهول، من خلال القواعد المستفادة من الكتاب والسنة والعقل، ففي الخبر الصادقي: (علينا إلقاء الأصول وعليكم التفرّع) [البحار ٢/ ٢٤٥، ح ٥٣].

وهذا الاجتهاد منقسم إلى قسمين، مطلق ومتجزٍ، فالأول ملكة يُقتدر معها على استنباط الحكم الشرعي في أيّ باب من أبواب الفقه، والثاني ملكة يقتدر معها على استنباط الحكم الشرعي في بابٍ دون باب.

والمجتهد يجب عليه العمل برأيه، وينفذ قضاؤه بين المتنازعين، ويجوز لغيره الرجوع إليه في التقليد.

والتقليد هو رجوع الجاهل إلى العالم، وهو أمرٌ فطري في النفوس، ولذا قامت سيرة العقلاء على الرجوع إلى العالم في العلوم والصناعات والفنون، بل في كل أمرٍ راجعٍ إلى نظامي المعاش والمعاد.

وقد أمضى الله هذه الطريقة في معرفة الأحكام بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وأمرنا بها المعصوم عليه السلام خصوصاً عند قرب زمن الغيبة، ففي الخبر العسكري: (فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فعلى العوام أن يقلدوه، وذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم) [البحار ٢/ ٨٨، ح ١٢].

وفي التوقيع الوارد عن صاحب الأمر عليه السلام: (وأما الحوادث الواقعة بعدي فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله) [البحار ٢/ ٩٠، ح ١٣].

وما ورد من ذمّ التقليد فهو راجع إلى ذم تقليد

الجاهل لمثله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والاحتياط حسنٌ عقلاً وشرعاً، لما فيه من إدراك الواقع بإتيان كل محتملاته، ويُشترط فيه أمران: **الأول**: أن لا يلزم منه اختلال النظام، **الثاني**: أن لا يؤدي إلى الوسوسة الشيطانية المنهي عنها، والوسوسة تعويد للشيطان الخبيث، وقد أمرنا أن لا نُعوّده على أنفسنا، ففي الخبر: (لا تعوّدوا الخبيث من أنفسكم ـ إلى أن قال: فإن الشيطان خبيث معتاد لما عُوّد) [الوسائل: ٨/٢٢٨، ح ٢، باب ١٦ من أبواب الخلل الواقع في الصلاة].

جنبنا الله معاصيه ووفقنا لمراضيه، والحمد لله رب العالمين.

عبّا ـ جبل عامل
٦ حزيران سنة ٢٠٠٥ م.
٢٨ ربيع الآخر سنة ١٤٢٦ هـ.

الفهرس

مقدمة ٥

الفصل الأول: حاجة الإنسان إلى الدين ٩

الفصل الثاني: وحدة الأديان ١١

الفصل الثالث: الإسلام ١٣

الفصل الرابع: العقيدة ١٧

مقومات الاعتقاد ١٧

أصول الدين ١٨

التوحيد ٢٠

العدل ٢٣

النبوة العامة ٣١

النبوة الخاصة ٣٧

أدلة جمع الشواهد والقرائن ٣٧
أدلة تنصيص السابق ٤٠
معاجز النبي ﷺ ٤٣
القرآن ٤٣
اسمه ٤٣
تعريفه ٤٤
تقسيمه ٤٥
تقسيمه بحسب السور ٤٥
تقسيمه بحسب الآيات ٤٨
الحروف المقطعة ٤٩
وجه إعجازه ٥١
إعجازه اللفظي ٥٢
إعجازه المعنوي ٥٣
إعجازه الأُسلوبي ٥٣
الفصل الخامس: الشريعة ٥٧